

صنعاء مدينة إسلامية قديمة في الجزيرة العربية

باولو كوستا *

تُعتبر صنعاء عاصمة الجمهورية اليمنية أحد النماذج والشواهد الشاخصة للحواضر الإسلامية الوسيطة. وقد احتفظت حتى وقت قريب بطابعها المعماري الإسلامي، وبتنظيماتها التقليدية العريقة.

ومدينة صنعاء ذات تأسيس سابق على الإسلام، يصل إلى القرن الثالث الميلادي، كما تشير لذلك النقوش السبئية. لكن ربما تكون أقدم من ذلك أيضاً، وبأسماء مختلفة عن اسمها المعروف. وغالباً ما يُشار إلى صنعاء باعتبارها حاضرة (هَجْر). لكن في أحد النقوش السبئية يُشار إليها كما يُشار إلى مأرب باعتبارها محرماً. والطابع القدسي لصنعاء يبدو مؤكداً من خلال عدة كتابات صخرية باقية. وينبغي أن نذكر هنا في اللغة السبئية أن المفرد: صنعاء، يعني المدينة المحصنة جيداً، أو التي بناها البشر أو التي حصنها الناس! والمعنى الأخير الذي ذكرناه لاسم المدينة ربما يشير إلى هشاشة وضعها إذ إنها مبنية في سهلٍ منبسط، وليس على قمة جبلٍ أو مكانٍ حصين. أما السور الطويل الذي بقيت أكثر أجزائه فهو يعود لعهد صلاح الدين الأيوبي، وهو أعرق الشواهد الباقية للمدينة القديمة، ويُحيط بالجزء الشرقي من البلدة، وما مسّته الحضارة كثيراً بشواظها بعد.

قبل الإسلام جرى احتلال البلاد اليمنية مرتين من جانب الأحباش: في القرن الرابع الميلادي، وفي النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي. وقد توافق الحضور الإثيوبي باليمن – والذين بنوا ثلاث كنائس منها واحدة بصنعاء- مع ازدياد ضعف التقاليد الدينية والسلطوية القديمة، وتساعد الميل للتوحيد. لكن الغزو الإثيوبي الثاني دفع لردة فعل عنيفة من جانب القبائل اليمنية البارزة. وقد طلب بعض زعماء القبائل العون من الفرس لإرغام المحتل على الانسحاب، بعد أن تحولت اليمن إلى دويلة تابعة للإثيوبيين. وقد انتهر الشاهنشاه الإيراني، الذي كان يريد مدّ سيطرته إلى ما وراء الخليج باتجاه البحر الأحمر – الفرصة، وهاجم الإثيوبيين وهزمهم، واحتل الفرس اليمن، ووقعت تحت حكمهم المباشر، وصار يحكمها سطرِبٌّ مثل سائر ولايات الدولة الساسانية.

ودخل الإسلام اليمن في وقتٍ مبكّر. فقد أقبل عددٌ من اليمنيين على الإسلام بعد الهجرة (622م) مباشرة، ثم دخلت قبائل الدين الجديد، وحتى باذان، الوالي الفارسي، اعتنق الإسلام. وهناك مسجدان كبيران في الجند وصنعاء يقال إن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم- أمر ببنائهما بنفسه. وفي الحقبه نفسها بني مصلى كبيراً (=الجبانة) خارج الباب الشمالي للمدينة. وقد تعرض هذا المبنى لتغييراتٍ وتعديلاتٍ عبر العصور؛ لكن بنيته الأصلية ما تزال قائمة.

أما الجامع الكبير فقد بُني في ما يقال في الحديقة الشاسعة التي كانت قائمة من حول قصر الوالي الفارسي المعروف باسم قصر عُمدان؛ في الجهة اليمنى من وسط المدينة. وللمسجد الجامع مئذنتان، ويتكون من أربعة أروقة من حول صحنٍ هائل الاتساع. أما السقوف فهي مدعومة بعواميد تتخللها أحجارٌ حميرية. وهناك عناصر أخرى من فترة ما قبل الإسلام من مثل الباب البرونزي مع الكتابات عليه، إلى يمين المحراب. وكان الوليد بن عبد الملك قد وسّع المسجد ورمّمه. وفي القرون الأربعة اللاحقة أضيفت حواضنٌ خشبية في جهة الشمال الغربي. وفي القرن الماضي بُنيت مكتبتان فوق الجناح الجنوبي أما المخزن الحجري، والذي ينفرد في البياحة، فقد بناه العثمانيون، وربما في مكان مبنى آخر قديم. وعندما كانت ترميماتٌ بسيطةٌ تجري بإدارتي بالجامع عام 1973، ظهرت مئات الأوراق من القرآن، يعودُ بعضُها للقرن الثاني الهجري؛ وذلك بين السقوف والحواضن الخشبية في الجناح الغربي. وقد اعتُبرت الأوراق المكتشفة كنزاً لقدمها البالغ، ولأنها ربما تحتوي على نُسَخٍ شعبيةٍ أو غير رسميةٍ من القرآن. وقد قامت الخبيرة أورسولا درايبهولز بترميم تلك المخطوطات والأوراق المتناثرة بعناية.

خلال عصور الخلافة كانت اليمن تُحكم من جانب الوُلاة. وإلى هذه الحقبة تعود مجموعة من الدكاكين ليست بعيدةً عن الجبانة، وما تزال تُعرف باسم سوق العراقيين. لكن الخلافة ما لبثت أن ضعفت، فحلت في الأطراف دويلات الأَسر المحلية التي ما كانت تتبع الخلافة إلا من الناحية الاسمية. ومن تلك الدول في اليمن دولة الزياديين واليعفرين والزيديين والصليحيين والهمدانيين - وكل هذه الدويلات كانت عواصمها خارج صنعاء. لكن مع صعود الأيوبيين للسلطة باليمن جرى اختيار صنعاء عاصمة. ومنذ ذلك الوقت عرفت المدينة المزيد من الاتساع والأبنية الجديدة، وإلى تلك الحقبة المزدهرة يعود بناءُ السور الباقي للعصر الحاضر، كما سبق ذكره. امتدت الأحياء الجديدة بالمدينة إلى الجانب الغربي من وادي السيلة، والذي ظل لقرونٍ يمثل الحدَّ الطبيعي للمدينة. قام الأيوبيون ببناء أو إعادة بناء قصر السلاح، والقلعة الضخمة التي ترتفع حيطانها العالية في آخر الطرف الشرقي للمدينة، على مرتفعٍ بسيطٍ عند السفح الغربي من جبلٍ نُقم. وفي عدة أماكن بُني الحائط بالحجارة الطينية، بينما تتخلله صخورٌ وأحجارٌ أيضاً، مجلوبة من أبنية ما قبل الإسلام، مما يشير إلى قدم هذا الجزء من المدينة.

وفي العام 628هـ/1228م خَلَفَ الرسوليون الأيوبيون في حكم اليمن، واعتبروا تعز عاصمة لهم، حيث بنوا ثلاثة مساجد جميلة. وقد أسس الرسوليون في اليمن لحقبة استقرارٍ وازدهارٍ طويلة نسبياً، وما كانوا رجال بناءٍ وقصورٍ فقط؛ بل أهل ثقافةٍ وعلومٍ أيضاً. وقد شيّدوا في "زبيد" عدة مكتباتٍ ومراكزٍ للدراسات الدينية والفلسفية والرياضية. وبنهاية الحكم الرسولي ظهر الطاهريون، لكنهم فشلوا في صد المماليك المصريين، الذين جاءوا لليمن ليحاولوا منع البرتغاليين من دخول موانئه والوصول للمحيط الهندي، وقد حاولوا عام 1513م الاستيلاء على عدن. واستطاع المماليك هزيمة الطاهريين بسبب استعمالهم للسلاح الناري الذي ما كان اليمنيون يعرفونه. وأخرج العثمانيون المماليك من اليمن،

وتابعوا الكفاح ضد البرتغاليين في المحيط الهندي. واستطاع الأتراك الاستيلاء على صنعاء، حيث مكثوا قرناً من الزمان. وخلال استقرارهم بصنعاء بنى العثمانيون مسجد الباكرية، الذي تميز بتغطية قاعة الصلاة بصخرة ضخمة. وقد بنى المسجد الوالي حسن باشا عام 1597 وما يزال قائماً حتى الآن.

انسحب العثمانيون من اليمن عام 1040هـ / 1630م فاستولى عليها الإمام الزيدي المتوكّل على الله المُبايع عام 1120هـ/1708م، والذي بنى في الجزء الغربي من المدينة سلسلة من القصور وحماماً ومسجداً ومستشفىً هو مستشفى المتوكّل. وقد أحاط الإمام قصره (دار الشكر) بحدائق ودفاعات. وبُنِيَ بعد ذلك قصر دار السعادة الذي يشرف على ساحةٍ للاستعراض طوّرت ما بين القصر وسور المدينة، ولها بابان: باب الشقّادف، وباب الانتباه في الجهة الجنوبية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر عاد العثمانيون إلى اليمن واستولوا على صنعاء عام 1298هـ/1872م. ومع أنهم كانوا مشغولين في أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية، ومعرضين لضربات القبائل باليمن؛ فقد حققوا إنجازاتٍ عمرانية: أعادوا تجديد أحد أبواب المدينة (باب اليمن)، وأصلحوا قصر المتوكّل وبعض الأبنية الأخرى بسبب السيل الذي ضُرب عام 1295هـ/1878م. وقد كانت لليمنيين ردة فعلٍ على العثمانيين وتصرفاتهم القاسية ومن ضمنها شرب الخمر في العلانية. وقد أعاد اليمنيون انتخاب إمامٍ زيديٍّ هو الإمام يحيى، وحاصروا صنعاء التي تبادلوا الاستيلاء عليها مع العثمانيين حتى العام 1911م عدة مرات. وقد غادر العثمانيون اليمن أخيراً عام 1918م بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. على أنّ مغادرته الأتراك ما أنهت ذكرهم. فقد بقيت الأبنية التي بنوها، والتي استخدمتها الإدارة اليمنية، كما استخدمها الجيش اليمني. ثم إنهم كانوا هم الذين أنشأوا التلغراف، ومدّوه إلى الريف، والبريد بين صنعاء والحديدة مرة في الأسبوع. وهناك المستشفى العثماني المزوّد بأعمدة سبئية. فالهندسة العثمانية خليط من المعمار الأوروبي والشرقي، وقد عرفت صنعاء آثاراً منها ما تزال معروفة إلى اليوم.

في القرن الأخير عرفت صنعاء متغيراتٍ جمّة نتيجةً للزيادة غير العادية في عدد السكان: من 80 ألفاً عام 1970م وإلى مليون ومائتي ألف في الأعوام الأخيرة. وما نالت هذه التطورات كثيراً من المدينة القديمة؛ بل أثرت في القرى والبلدات والأحياء التي كانت خارج سور صنعاء وصارت الآن متصلةً بها من مثل "بئر العَرَب" (غرب قصر المتوكّل)، و"حدّة" في الجنوب الغربي، و"العصر" في الغرب، و"الروضة" في الطريق إلى المطار، وقرى دجاج وجراف ووادي ظهر. وقد نالت هذه النقلة الواسعة من الطابع التراثي لصنعاء: مثل المبنى الضخم للاتصالات، وناطحة السحاب التي تقوم فيها شركة الطيران اليمني، لكنّ اليمنيين يُقبلون لحسن الحظ في أبنيتهم الحديثة على تقليد القديم، كما أنّ هناك عدة مبانٍ أثرية لا تزال باقية.

(* بروفييسور إيطالي مختص بالعمارة الإسلامية بجامعة بولونيا.

